مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(9)، العدد (2)، (ديسمبر 2024)، ص 246-258
ISSN: 2602-5566 EISSN: 2716-8999

الفضاء العمومي وعقلنة الفعل التواصلي عند هابرماس

Public Sphere and the Rationalization of Communicative Action according to Habermas

عائشة مذكور[1]*، جمال الدين بن سليمان[2]

[1] مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة. جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، aicha.medkour@univ-biskra.dz،

[2] جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، djameleddine.bensliman@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2024/09/05 **تاريخ القبول:2024/11/01**

ملخص:

يركّز البحث على العناصر الأساسية التي شكّلت مفهوم الفضاء العمومي باعتباره حجر الزاوية في الفكر السياسي الهابرماسي، وظاهرة اجتماعية ساهمت في تطوير نظرية سياسية حول الديمقراطية موصلة بإتيقا المناقشة، حيث مكّنت عقلنة الفعل التواصلي من بناء ديمقراطية تشاورية بديلة لليبيرالية والاشتراكية، لبناء دولة الحق القانون والديمقراطية. لذلك سيغدو هذا العمل استشكالا من هابرماس لمفهوم الفضاء العمومي ودوره في عقلنة الفعل التواصلي السياسي بوصفه ملتقى تتلاقح فيه الآراء والمواقف من أجل تحقيق تواصل مشترك، فهو المجال الذي يحقق التواصل السياسي بين المواطنين في إطار العالم المعيش حيث يتصيّر دور المواطن إلى فاعل اجتماعي له القدرة على تنظيم الحياة السياسية ضمن فضاء حواري تشاركي، ومنه يتحدّد المجال السياسي من حيث جودته الخطابية، حيث ترتبط نظرية الفعل التواصلي بعقلنة السياسة عبر الوسيط اللغوي وأساسه النقاش التشاوري، لذلك تمحورت أهداف هذه الدراسة في الكشف عن الصلة التي تصل الفضاء العمومي بفعل العقلنة كما هو متجل في النظرية الديمقراطية التشاورية كرهان واقعي لنشأة المجتمعات المدنية.

كلمات مفتاحية: فضاء عمومي؛ عقلنة؛ فعل تواصلي؛ اندماج اجتماعي؛ ديمقراطية تشاورية.

Abstract

This research paper focuses on the basic elements that formed the concept of public sphere as a cornerstone of Habermasian political thought, and as a social phenomenon that contributed to the development of a political theory about democracy connected to discourse ethics, as it enabled the rationalization of communicative action to build a deliberative democracy as an alternative to its liberal and socialist predecessors, in order to build a state of rights, law and democracy. Therefore, this work will be dealing with problems related to Habermas's concept of public sphere and its role in rationalizing political communicative action as a meeting space where opinions and viewpoints cross-pollinate in order to achieve common communication. It is the sphere that realizes political communication between citizens within the framework of the lifeworld, where the role of the citizen becomes a social actor with the ability to organize political life within a collaborative dialogue sphere; through which the political field is determined in terms of its discourse quality, as the theory of communicative action is linked to the rationalization of politics through the linguistic based on deliberative debate.

Keywords: Public sphere; rationalization; communicative action; social integration; deliberative democracy.

* المؤلف المرسل.

1- مقدمة

يعتبر مفهوم الفضاء العمومي من أكثر المفاهيم إثارة للجدل ومنعطفا مهما في الفكر الفلسفي الهابرماسي فقد حظي باهتمام كبير داخل الأوساط الفلسفية والاجتماعية، فكان كحركية معبّرة عن الصّيرورة الاجتماعية التي اقتضت ضرورة تعميق براديغم موصول بفلسفة التواصل ومنفتح على الآخر مجاوزا لصورة الذات في انعزالها وتقوقعها، هذا ما تجسّد داخل الفضاء العمومي السياسي ليكون ميلاد السؤال السياسي الهابرماسي في كتابه الفضاء العمومي فيكتمل ويتجذّر في كتابه الحق والديمقراطية.

كشفت القصدية الهابرماسية عن الفضاء العمومي عن حمولة ثقيلة ضمّنت المفهوم عبر مرحلية ربطته بدءا بمفهوم الدعاية والنظم الاقتصادية والسياسية التي طبعت المجتمعات الليبيرالية البرجوازية ليتطوّر ويتصيّر عبر منطق تجاوزي يجاوز منطق السيطرة إلى منطق الانعتاق والتحرر فيصبح سمة تنشدها المجتمعات الراهنة، ترتبط بالتفعيل الإتيقي من أجل عقلنة الفضاء العام تجسيدا للديمقراطية بوسيلة الوسيط اللغوي الذي يحتكم إليه القرار السياسي.

اقتضت هذه الدراسة إتّباع نفس المنهج الذي اتّبعه هابرماس في تحليله لفكرة الفضاء العام وتحولاته، فكان منهجنا سوسيو تاريخي في اكتناه مرحلية الفضاء العمومي والتّصيرات التي لحقته ومحاولة اقتناص سؤال الفيلا صوفيا الهابرماسي ضمن هذه المفهمة، خاصة أن راهنية البحث في إبستيمية السياسة وعلاقتها بالديمقراطية باتت واقعا تطمح جميع الشعوب لتحقيقه فعليا في تسيير شؤون الدولة فكان البحث في الجغرافية السياسية الهابرماسية يرتبط بمفهوم الفضاء العام الذي كشف عن خفايا وقتامة البراديغم الليبيرالي البرجوازي، وبسطه لمنطق السيطرة عبر مؤسساته وتجاوزه إلى ديمقراطية يكتنه ماهيتها ضمن الفعل التواصلي من خلال المنعرج اللغوي حيث يحدث التواصل بين المواطنين متّخذا من النقد معولا له، تشكيلا للرأي العام وتجاوز منطق الهوة بين المجتمع ومؤسسات الدولة الذي مارسته الديمقراطية الكلاسيكية وهو ما يدفعنا إلى استشكال مفهوم الفضاء العمومي وعلاقته بالعقلنة الاجتماعية كالآتي: كيف عمل مفهوم الفضاء العمومي على عقلنة الفعل التواصلي؟ وكيف يمكن عقلنة الفضاء العمومي رغبة في تجسيد الديمقراطية الحقة؟ وهل ستفضي هذه العقلنة إلى تأسيس دولة الحق والقانون والديمقراطية؟

2- الدلالة المفهومية للفضاء العمومي:

يُعد المفهوم مرتكزا جوهريا في دائرة البحث في سياق توصيف الظاهرة واكتناه معناها، لذلك سنقتص معنى الفضاء العمومي ليس ايثيمولوجيا ولا اصطلاحيا كما تقتضيه المعاجم والقواميس بل من سياقه ضمن المفهمة الهابرماسية، وهذا يقتضي البحث في القاموس السياسي

الهابرماسي حيث يعود الفضل لميلاد الفضاء العمومي إلى هابرماس في كتابه الفضاء العمومي 1962 الذي شكّل منعطفا أساسيا في الفكر السياسي الهابرماسي.

ويعني الفضاء العمومي "الفضاء الاجتماعي الذي يعرف تبادلات عقلانية ونقدية بين الذوات (الفردية والجماعية) التي تسعى إلى بلوغ حالة التوافق حول القضايا التي تتّصل بالممارسة الديمقراطية" (علوش، 2016)، ومن ثم فالفضاء العمومي لا يعبّر عن حرية أفراده في تشكيل رأي عام وإنّما هو فاعل إيجابي له قوة التأثير والتغيير في مراقبة المؤسسات السياسية، فهو مجال لمناقشة قضايا الشأن العام بطريقة عقلانية حجاجية تكون الراية الأولى فيها للكلمة التي تُجاوز دوغمائية الفكر نحو الانعتاق الفكري ينفتح فيه المجال لتعددية الآراء والمواقف التي يتم مناقشتها بطريقة عقلانية تكون فيها الفكرة الأصوب هي الفكرة الأقرب إلى الإجماع والأكثر إقناعا.

وإذ ذاك فإن الفضاء العام مجال للمناقشة العمومية ذات الوظيفة النقدية بين أفراد المجتمع تجسيدا لفكرة الديمقراطية حيث يستخدمون المحاججة لدحض منطق القوة والسلطة، ومنه فالفضاء العمومي هو مجال لتطور الوعي السياسي، فهو ملتقى يجتمع فيه الأفراد بشكل حر وعقلاني في إجراء مباحثات نقدية حول قضايا الرأي العام، حيث "أصبح المفهوم السياسي للفضاء العام جزءا لا يتجزأ من سياق اجتماعي بنيوي أوسع"(Habrmas, 2023) .

في إطار فهم الفضاء العمومي، ظل هابرماس وفيا للفكر الكانطي في القرن الثامن عشر خاصة في فكرة الاستخدام العمومي للعقل استخداما نقديا، وإن مبدأ العمومية الكانطي الذي استلهمه هابرماس هو "مفهوم معياري من نسيج خيال سياسي بعيد كل البعد عن الوقائع، ومع ذلك فإن لهذا المبدأ القدرة على توجيه الفعل" (هونيث، وآخرون، 2022).

هكذا يكون الفضاء العمومي حيزا معنويا يرتبط بنقاش عقلاني منطقي حجاجي لإيجاد حلول حول قضايا تخص الشأن العام، ويستخدم فيه العقل كقوة ناقدة، فهو مجال لاجتماع مجموعة من الأفراد لمناقشة القضايا العامة ولقد أُستخدمت الكلمة الألمانية Öffentlichkeit للدلالة أولا على فكرة الدعاية ثم الفضاء العام أو الجمهور.

ولّدت هذه المفهمة التي اصطبغ بها الفضاء العمومي، سؤال الفيلا صوفيا داخل الحقل السياسي بأبعاده الثلاثة الأنطولوجية، التي ارتبطت باجتماع المواطنين داخل الفضاء العمومي من أجل تكوين رأي عام، ما يعني تجاوز مستوى الوعي الذاتي، إلى مستوى الغيرية والإندماج الاجتماعي ضمن فلسفة التذاوت التي تُحايث فيها الأنا الآخر في اتخاذ القرار السياسي، أما البعد الإبستيمولوجي فاقترن بالاعتماد على الحجاج العقلاني، الذي يتّخذ النقد معولاً له لتبصُّر الفكرة الأصوب والأقنع وهي التي لقيت الإجماع، وتتجلّى أكسيولوجية الفضاء العمومي في كونه يهدف إلى تحقيق الفهم والتفاهم بين المواطنين.

3 - الفضاء العمومي كتأسيس لعقلنة المجتمع:

تناول هابرماس دينامية الفضاء العام البورجوازي، بالاعتماد على التحليل التاريخي السوسيولوجي، معتبرا التصيّر الذي لحقه عبر المراحل التاريخية، فهو مفهوم مرحلي عرف صيرورة وسيرورة عملت على تشكيله، فهو مفهوم تشكّل عبر مرحليته الزمنية، حيث تعود جذور نشأة الفضاء العمومي إلى اليونان وقد اقترن بالمدينة La cité في إطار ما يعرف بالأغورا Agora حيث كان المواطنون يثيرون الكثير من القضايا التي تتعلق بحياتهم اليومية في الأسواق والساحات العامة تجسيدا لفكرة الديمقراطية، فهو فضاء عام للنقاش الحر، وبهذا يتبين لنا معنى الفضاء العمومي بوجهيه المادي الذي يرتبط بمكان اجتماع البشر "الأغورا" والمعنوي الذي يرتبط بالجانب الحواري بينهم.

وفي هذا السياق يرتبط الفضاء العمومي أو الحياة العامة بالمدينة وهي ملتقى المواطنين الأحرار الذين يجتمعون لمناقشة قضايا المدينة، أما الحياة الخاصة فتقترن بالأسرة، وحسب هابرماس فإن الفضاء العمومي برز في القرن السابع عشرة في إنجلترا ثم في فرنسا في القرن الثامن عشر ببروز البورجوازية تزامن مع ظهور الدولة الحديثة، بهذا كان اهتمام هابرماس منصبا على تحليل التغيرات البنيوية والوظيفية، التي طرأت على المجال العام البرجوازي، بهذا يعني أن "المجال العام – وهو يتضمن الرأي العام – قد تولّد في بداية الأمر انطلاقا من التنظيم العفوي للعائلة البورجوازية، بوصفها الخلية المجتمعية الأولى، ثم ما لبث هذا التنظيم أن امتد إلى مجالات خارجية أوسع تتمثل أساسا في التنظيمات الاجتماعية والمؤسساتية المنظمة للوظيفة السياسية في الميدان البورجوازي العام" (مهيبل، 2005).

وارتبط الفضاء العمومي بالصالونات والمقاهي والنوادي العامة حيث كان يجتمع مجموعة من الأفراد المثقفين (طبقة البورجوازية) لتبادل آرائهم ومواقفهم حول الأدب والفن والثقافة ثم ارتقى بعد ذلك لمناقشة الشأن السياسي، وبازدهار الصحافة تشكّل الرأي العام في أوروبا عموما وهذا ما ولّد زيادة النقد والنقاش ومراقبة السلطة ضمن فضاء عام بورجوازي فكان الفضاء العام بمثابة الواسطة التي تصل الدولة بالمجتمع، أما في القرن التاسع عشر تصيّر الفضاء العمومي وبدأ يفقد قيمته وطابعه العقلاني خاصة بعد ازدهار الصحافة، حيث تحوّل المواطنون إلى مستهلكين أكثر منهم فاعلين؛ أما في القرن العشرين انتشرت فكرة الفضاء العمومي، إلى العالم كله بعد ازدهار الإعلام والأنترنت.

وحسب هابرماس فإن المُنظّر الفعلي للفضاء العمومي هو إيمانويل كانط في مقاله: ماهو التنوير؟ إذ يرتبط التنوير باستعمال العقل دون تدخل أية وصاية من خارجه، باعتباره استخدام العقل بشكل عمومي، لن تكون فكرة التحرر من كل وصاية بشكل فردي خاص وإنّما بشكل عمومي

جماعي وذلك "انطلاقا من ذوات مستقلة في تفكيرها يتحرك أفق التحرر نحو المواطنين، بأكملهم فهذه الصّيرورة لابد منها للوصول إلى الحرية" (علوش، 2016، صفحة 66).

ينشأ الفضاء العمومي باجتماع الذوات العاقلة في إطار تبادل الأفكار فيما بينهم، فمنظور كانط للعقلانية هو منظور ذاتي، وليس ذاتيا محضا وإنّما في إطار الانفتاح البينذاتي داخل الفضاء العمومي وهو ما يقتضي فكرة العلنية.

ولقد بيّن هابرماس في كتابه الفضاء العمومي أركيولوجيا الدعاية باعتبارها مكونا أساسيا للمجتمع البورجوازي L'espace public : Archéologie de la publicité comme dimension التحولات التي طرأت على بنية الفضاء العمومي البورجوازي، حيث اقترن بنشأة الدولة الحديثة وميلاد نخبة من المثقفين منهم إداريون وأساتذة وأطباء وقضاة وغيرهم، حيث شكّلوا فضاءً عاما وظيفته مراقبة ونقد ممارسات السلطة السياسية، فكان بمثابة "وسيط أصيل لم يسبق له مثيل في التاريخ بين الأشخاص الخواص والسلطة" (زتيلي، 2014)، فظهور البورجوازية هو الذي يسمح بإدارة نقاش عقلاني بين الأفراد ويتعلق بمراقبة السلطة السياسية فتحوّل المجال العام الأرستقراطي والأدبي إلى مجال عام بورجوازي وسياسي.

هذا، وتعتبر الصحافة ركيزة أساسية لنشأة الفضاء العمومي حيث يتشكّل نقاش عمومي بين الأفراد منبعه الأخبار الواردة من الصحافة وبالتالي إعادة تفعيل السياسة من منظور جماهيري أُعتبر الإعلام وسيلة لمراقبة السلطة السياسية وهو ما عمل على نشأة فضاء عمومي بورجوازي، يقول هابرماس في هذا الصدد: "تسمح وسائل الإعلام في الفضاء العام بتكوين الرأي والإدارة بشكل شبه تداولي في صفوف السكان أنفسهم، ويجب أن تكون القدرة على التعبير في وسائل الإعلام المستقلة قوية بما يكفي لضمان ربط السلطة السياسية بقوة الاتصال التي يولدها المواطنون. السلطة الوحيدة التي تأتي من الشعب" (Habrmas, 2023, p. 26)،

ويرى هابرماس أن التحوّل من النموذج الليبيرالي، إلى النموذج الاشتراكي جعل الفضاء العمومي يفقد وظيفته النقدية؛ فبسبب رقابة الدولة وتدخلها في دواليب جميع الأنشطة، يقل اهتمام الرأي العام بما هو سياسي وفقد دوره النقدي، خاصة بعد ما تقدم العلم والتقنية وازدهار وسائل الإعلام والإتّصال، وتلاشي طابع العقلانية عنه لأنه أصبح تحت هيمنة الإيديولوجيا، ارتبط هذا التشخيص بمرحلة ساد فيها البراديغم الليبيرالي البرجوازي، الذي سادت سيطرته بفعل الهيمنة التقنية، التي بسطت أغلالها لتقييد الرأي العام.

ساهمت الدعاية في ترسيخ نوع من التواصل، بين أفراد المجتمع لتأكيد فكرة أن الفرد له القدرة على النقد العقلاني، دون الامتثال لأية سلطة سياسية ولكنّها حادت عن مسارها لأنها تحت هيمنة المؤسسات البيروقراطية الخاصة، وليست العامة التي تسعى إلى تحقيق المصلحة، لذلك فإن الدعاية هي "الآلة التي تعمل على خلق حاجات جديدة مزيفة لدى الأفراد لتربطهم ربطا غريزيا

بالنظام، إذ كلما ازدادت الوفرة الإنتاجية وارتفعت معدلات الأرباح وتوسّعت الصناعة زادت الحالة الإنسانية للفرد سوءا، وأرجئت آمالة وطموحاته التحررية إلى أجل غير مسمى" (مهيبل، 2005، صفحة 327)، وهذا ما قاد إلى استلاب الوعي الجماعي من وظيفته النقدية.

ومن ثم فإن الفكر الهابرماسي كان يُناشد تجاوز قتامة هذا الوضع الذي آلت إليه المجتمعات الغربية، من خلال إنتاج تصور أخلاقي للممارسة العقلانية، داخل الفكر السياسي الليبيرالي ودمجها بفكرة الديمقراطية، وهذا ما جعلنا نلاحظ بأن هناك تغير في وجهة نظر هابرماس للديمقراطية وذلك بالتفكير في مخرج من خلال "خلق إجماع حقيقي يستطيع الفرد من خلال المناقشة، الخروج من تلك الهيمنة الداخلية الذي فرضته وسائل الاتصال الحديثة والسلطة والمال" (حسن، 2012).

إن هذا التّصير في وظيفة الفضاء العمومي هو ما ألزم ضرورة العقلنة أي "إدخال العقل في منطق العمل الاجتماعي خاصة في التواصل" (علوش، 2016، صفحة 76)، وفي حديثه عن تاريخية تطور مفهوم الفضاء العام، يشير هابرماس إلى أنه إذا لم يكن التواصل عقلانيا وحرا، ولم يؤد وظيفته النقدية فإنه يصير مشوها وزائفا بفعل سيطرة السلطة "وذلك بفعل الإواليات النسقية للسوق وللبيروقراطية" (سينتومير، 2023)، وذلك عن طريق التشيّؤ بوصفه استعمار للعالم المعيش، من جانب الآليات النسقية، بحيث يصير "إجماعا زائفا لا تتوافر فيه الشرعية العقلانية" (حسن، 2012، صفحة 197)، وإن كان ذلك تأثيرا واضحا في تراجع الوظيفة النقدية للفضاء العام، لأنها خاضعة لسلطة تتحكم فيها المصالح الاقتصادية ومن ثم أفول المعنى الحقيقي لمفهوم الفضاء العمومي ودوره في تشكيل الوعي السياسي الديمقراطي.

أما التواصل الحقيقي فيرتبط بقوة البرهان ومدى عقلانيته، ذلك أن "القرارات التي توصل إليها التفاعلات في الفضاء العام هي إذًا (قرارات) عقلانية" (سينتومير، 2023، صفحة 326) فالعقلنة تبرز عندما يتشكّل الرأي العام بشكل حر داخل الفضاء العام، حيث يرى أن هناك مماهاة بين الفضاء العام والرأي العام من منظور تواصلي، فلقد أكد هابرماس على قوة وفاعلية المواطن في المشاركة السياسية حيث "تُدرك الديمقراطية بوصفها عملية تاريخية يتحقق فيها مجتمع من مواطنين راشدين، وتتحول فيها السلطة الاجتماعية إلى سلطة عقلانية" (فيغرسهاوس، 2022).

ومنه فإن مساءلة الفضاء العام وأشكلته هو الذي سيقود إلى تأسيس نظرية الفعل التواصلي بمعنى أن البعد التواصلي داخل مفهوم الفضاء العمومي، هو الذي قاد إلى بناء نظرية الفعل التواصلي، والتي كانت تمهيدا لتأسيس نظرية في الأخلاق فكل فعل سياسي هو في جوهره فعل تواصلي وكل فعل تواصلي هو في جوهره فعل أخلاقي، ومنه تبرز العلاقة القائمة بين السياسة والأخلاق، لذلك كان لزاما إعادة إحياء سؤال الفيلا صوفيا وبعثه من جديد في مسألة الفضاء

العمومي وذلك باقترانها بنظرية الفعل التواصلي والتي تقتضي إرساء قواعد معيارية لضبط الحوار والنقاش بين المواطنين داخل الفضاء العمومي، فالوعي الأخلاقي يتأسس على جملة من المعايير والشروط التي تؤسّس كل أخلاقية، ومن ثم لا يمكن اكتناه معنى الفضاء العمومي ضمن الطرح الهابرماسي إلا في علاقته بمفهوم التواصل، وهذا ما يقتضي ضرورة تعميق براديغم موصول بفلسفة التواصل ومنفتح على الآخر، مجاوز لبراديغم الذات وانعزالها وتقوقعها على نفسها، لذلك "فإن الإمكان المعياري الذي يسمح بالمطالبة بتحقيق الديمقراطية قد يأتي من مصدر تاريخي متواجد في معيش الفاعلين عبر الممارسة التواصلية للحياة اليومية" (هونيث، وآخرون، 2022، صفحة 119).

4- عقلنة السلطة التواصلية أساس الديمقراطية التشاورية:

لقد صاغ هابرماس نظريته في الديمقراطية باسم الديمقراطية التشاورية كبديل للديمقراطية الليبيرالية والجمهورية، حيث يربط الديمقراطية التشاورية بإتيقا المناقشة، فكل فرد له الحق في المشاركة العقلانية النقدية داخل الفضاء العمومي الديمقراطي الحر، حيث يتم الوصل بين الفرد والجماعة ضمن هذا الفضاء تجاوزا للنموذج الليبرالي المتوحش، الذي يعلي من شأن الفرد على حساب الجماعة والنموذج الاشتراكي الذي يقدم الجماعة على حساب الفرد.

ومن ثم فإن المعية بين الفرد والجماعة هي التي تؤسّس لنقاش عقلاني حر يهدف إلى إيجاد حلول ترتبط بالشأن العام داخل البراديغم الليبيرالي، إذ الحقوق فردية وتسعى الدولة لحماية المصالح الخاصة بالمواطن باسم القانون، حيث يتحدّد الفضاء العمومي من خلال مبدأ المنافسة من أجل المحافظة على السلطة وترتبط وظيفة السياسة في الديمقراطية الليبيرالية ب "تجميع وإبراز المصالح الخاصة بالجميع إزاء جهاز الدولة التي تتحدد وظيفتها الخاصة في التوظيف الإداري للسلطة السياسية بهدف تحقيق المشاريع المشتركة" (هابرماس، 2009).

أما البراديغم الاشتراكي فالحقوق جماعية وتخص جميع المواطنين وليس فئة محددة وأن الإرادة الفردية مندمجة ضمن الإرادة الجماعية، لتعتبر السياسة كشكل تأملي لسياق حياة أخلاقية الوسيط الذي يدرك فيه أعضاء الجماعة المتضامنة والمشكلة عفويا ارتباطهم وعلاقاتهم المتبادلة" (هابرماس، 2009، صفحة 219).

ترتبط الديمقراطية التشاورية بفكرة التواصل التي تُشرعن للعقلانية الخطابية التي تتأسس على فكرة النقاش والتي تؤدي إلى تشكيل الرأي العام الذي يعتبر حسب هابرماس "أساس السلطة الديمقراطية التي تمارس ضمن إطار قانوني" (Habermas, 1997)، وذلك يتم في أفق التداخل عن طريق التواصل اللغوي وفق شروط الحوار والمناقشة التي تساهم في تشكيل الرأي العام وهو نتاج لحوار بيننذاتي، لأن المواطن يتجاوز ذاتيته لينخرط ضمن العملية التواصلية كفاعل اجتماعي فتحقيق فكرة الاندماج الاجتماعي لا تُفهم إلاّ ضمن العملية التواصلية بوصفها عملية

عقلانية، إذ هناك مساوقة بين فعل التواصل والديمقراطية، "فالعقلانية الديمقراطية قد ورثت بالفعل ميزات المنطق التواصلي الذي تقوم عليه" (سينتومير، 2023، صفحة 189).

ومن ثم ففكرة الفضاء العمومي رسّخت فكرة المواطن السياسي الذي له قدرة الانخراط في الفضاء العام والمشاركة العقلانية النقدية، حول قضايا الشأن العام بطريقة حوارية تنبني على مجموعة من الأسس والمعايير، وهذا يبرز الوصل بين الشأن السياسي وفكرة الاندماج الاجتماعي لذلك يمكن "اعتبار نظريته في المجتمع نظرية سياسية" (مؤلفين، 2012)، إذ نظرة هابرماس في الديقراطية تُعد إحدى تجليات نظريته حول المجتمع.

وإن تجسيد فكرة الديمقراطية التشاورية داخل الفضاء العمومي من خلال النقاش بين الفاعلين الاجتماعيين الذي يعمل على سن القوانين وبذلك تتشكّل نظرية الحق من منظور تواصلي وإن الحوار الديمقراطي بين الفاعلين الاجتماعيين هو ما يجسد العقلانية، فالعقلانية باسم السياسة تعني "إجماع المشاركين في النقاش بطريقة معقولة" (سينتومير، 2023، صفحة 253).

وترتبط نظريته في الديمقراطية التشاورية، بمفهوم السلطة التواصلية بوصفها تصور معياري للفضاء العمومي؛ إذ تجاوز هابرماس الجوانب السلبية التي كانت تهيمن على مفهوم السلطة في كتاباته الأولى ف "لم تعد نظرة هابرماس إلى السلطة نظرة سلبية، حينما سيتم الجمع بينهما وبين التواصل" (مؤلفين، 2012، صفحة 255).

فلقد أصبحت السلطة تحكم باسم القانون والقانون في خدمة السلطة، فقد "ظهرت السلطة السياسية في نفس الوقت الذي ظهر فيه القانون الذي صادقت عليه مؤسسات الدولة" (Habrmas، 2023، صفحة 43).

يرى هابرماس ب "أن المواطنين العاديين قادرون جماعيا من خلال نقاشهم في شأن الفضاء العام على خلق سلطة ديمقراطية تغذي مؤسسات دولة الحق أو القانون" (سينتومير، 2023، صفحة 187)، ومنه تساهم السلطة التواصلية في عقلنة المجتمع داخل الفضاء العمومي وهو ما يؤسس لدولة الحق والقانون والديمقراطية، فالقانون هو الذي يعمل على تجسيد فكرة الديمقراطية داخل المجتمعات "ووظيفته الأساسية هي تحويل السلطة التواصلية إلى سلطة إدارية" (مؤلفين، 2012، صفحة 257)، وبذلك يصبح المواطن هو مصدر السلطة التواصلية داخل الفضاء العمومي التي تعمل لأجل الصالح العام.

ويرتبط مفهوم السلطة عند هابرماس بنظرية الاندماج الاجتماعي، التي ترتبط بدورها بفاعليتين: السلطة الإدارية، السلطة التواصلية، وهي "التواصل السياسي حين يتمأسس في دولة القانون الديمقراطية" (سينتومير، 2023، صفحة 372)، بتحول المواطن إلى مشرّع ضمن الفضاء العام، الذي يسمح بتكوين مجتمع مدني بوصفهما "يشكّلان جزءاً من العالم المعيش فهما يرتبطان بقوة الاندماج الاجتماعي الخاصة بهذا العالم، وهي التضامن" (سينتومير، 2023، صفحة 377)،

في هذا الصدد يقول هابرماس: "يجب على المواطنين الذين يشاركون على قدم المساواة في تشكيل الإرادة الديمقراطية أن يعتبروا أنفسهم في المقام الأول أصحاب الحقوق التي يمنحونها لبعضهم البعض" (Habrmas، 2023، صفحة 53)، ومن ثم فالقانون هو الذي يعمل على تحويل السلطة التواصلية إلى سلطة إدارية وله القدرة على تنظيم العالم المعيش، وتحقيق التضامن بين أفراد المجتمع؛ هو ما يؤسّس لدولة القانون لأن "القانون مرتبط بالمال والسلطة الإدارية والتضامن، فإنه يخضع لمختلف الضرورات من خلال مساهمته في التكامل الاجتماعي (Habermas، 1997، صفحة 54).

إن غرض هابرماس من تأسيسه لنظرية سياسية جديدة حول الديمقراطية "تخص المجتمع المدني اليقظ سياسيا، والمعبئ والقلق بشأن معنى الوضع الراهن التاريخي ومستقبله أكثر مما تخص العمليات الانتخابية، أو الأداء البائس للآليات التمثيلية الحكومية وشبه الحكومية، التي تدفع الناس للعزوف عن السياسة" (هونيث، وآخرون، 2022، صفحة 185).

يكون مصدر القانون في دولة الحق الرأي العام ووظيفته خدمة المصلحة العامة ومجال تجسيده هو الفضاء العمومي، فشرعية القوانين تستمد من الإرادة العامة داخل الفضاء العمومي التواصلي حيث يضع هابرماس "على عاتق المؤسسة القانونية منح الشرعية للنقاشات ورعايتها وبذلك يتشكّل نوع من العلاقة الجدلية بين القانون والنقاش" (المحمداوي، 2011).

إن البحث في الشروط الافتراضية القبلية لإتيقا المناقشة، التي تؤسّس لفكرة الفضاء العام سيولّد رأيا عاما، له قدرة مراقبة جميع دواليب العملية السياسية من خلال الفعل التواصلي المعقلن. فالمجال العام هو الذي يعمل على المزاوجة بين الديمقراطية وفعل العقلنة، ليقول هابرماس في ذلك: "من وجهة نظري، يجب على نظرية الديمقراطية أن تعيد بناء المحتوى العقلاني للمعايير والممارسات بشكل عقلاني" (Habrmas، 2023، صفحة 58)، إذ يصبح التواصل له دورا هاما في عقلنة المجتمع داخل الفضاء العمومي، فالفضاء العام أصبح هو المجال الذي يُشرعن لعقلنة الديمقراطية التشاورية من خلال تداول القضايا ذات الطابع الخلافي، من أجل تحقيق الفهم والتفاهم بعد النقاش والمحاججة لتندمج فيه جميع الفئات الاجتماعية في بعدها التشاركي، بعيدا عن كل هيمنة وسيطرة حيث يؤكد هابرماس على الدور الأساسي الذي يلعبه الفضاء العام في تجسيد قدرة الديمقراطية على حل مختلف المشاكل والنزاعات.

إن تجسيد إتيقا المناقشة كما يرى هابرماس، تستند إلى القانون من خلال مؤسساته وهو بدوره يستمد مشروعيته من المناقشات العقلانية بين المواطنين داخل الفضاء العام "لذلك فهابرماس يجعل من المأسسة النقاشية أساسا للشرعنة بقدر ما تمثل هذه المأسسة عكسيا معيارا لشرعنة النقاشات في المجال العام" (المحمداوي، 2011، صفحة 244)، فالقانون يرتبط أولا بالتعبير عن المصلحة العامة وذلك يتم عبر المناقشة داخل الفضاء العام، بين جميع المواطنين

الذين يحددون مصيرهم السياسي، يقول هابرماس في هذا الصدد: "إن سلطة الدولة المُدسترة (Konstitutionalisiert) قد تمت دمقرطتها، وصار المواطنون من حيث هم مواطنو دولة يتمتعون بحقوق المشاركة السياسية" (هابرماس، نظرية الفعل التواصلي في نقد العقل الوظيفي، 2020).

ترتبط المعايير التي تؤسّس الفكر السياسي الديمقراطي - حيث يتحقق التواصل بالتفاعل بين أفراد المجتمع داخل العالم المعيش هي معايير- باستخدامات اللغة إذ "تنحو الديمقراطية إلى مأسسة جماعة التواصل المثالية سياسيا أي الجماعة التي لا سيطرة عليها، وهذه الأخيرة تشكل نهاية دينامية محايثة لتنشئة اجتماعية تتوسطها اللغة" (سينتومير، 2023، صفحة 252).

إن منطق الحجاج اللغوي هو الذي يُشرعن للديمقراطية السياسية، لتعمل بدورها على شرعنته، وتهدف الديمقراطية التشاورية "إلى تأمين المصلحة بين الاحترام الكامل لحقوق الإنسان والممارسة الكاملة للسيادة الشعبية" (سينتومير، 2023، صفحة 408)، لذلك يؤكد إيف سينتومير أن هابرماس أراد أن يجسد الطرح الروسوي (نسبة إلى روسو) عمليا بحيث يكون الشعب هو مصدر السلطة، أما حقوق الفرد فتطرح من منظور حواري تواصلي ضمن العقلنة التواصلية، وإذا تجاوزت الحقوق الديمقراطية فإنّها ستتحوّل إلى سلطة أبوية ميزتها السيطرة والتحكم، فالشعب يمارس ديمقراطيته بواسطة الخطاب الحجاجي داخل مؤسسات الدولة، وهذا ما يقتضي جملة من المبادئ تفترض "وجود أفراد يتواصلون في الفضاء العام ويتكونون من خلال إجراءات تضمن التعددية السياسية والثقافية" (سينتومير، 2023، صفحة 409).

وتعتمد الديمقراطية على التداولية التي ترتبط بالنقاش والنقد واستعمال الحجج داخل الفضاء العمومي، فالنقاش بين الأفراد يستند إلى اللغة باعتبارها "الوسيط العالمي الذي يتجسّد فيه العقل" (Habermas، 1997، صفحة 22)، وذلك من خلال استعمال الحجج للتعبير عن الآراء وتبريرها باسم المصلحة العامة والتي تقود إلى التفاهم المتبادل في إطار ما يسميه التداولية الكلية وهو ما يرتبط ب "إعادة بناء الشروط العامة لنجاح الأفعال اللغوية على أنماط صلاحية التبادلات التواصلية المجمعة في كليات تداولية متضمنة في كل فعل لغوي" (هونيث، وآخرون، 2022، صفحة 167)، فالمنطق التواصلي لا يخضع لمنطق السيطرة وإنّما يخضع لمنطق العقلنة، حيث تكون الكلمة الأولى للحجة القوية التي لها القدرة على الإقناع، ومن ثم فالفعل التواصلي "هو الذي يحدد لديه العلاقات الاجتماعية داخل فضاءات عمومية قائمة على المناقشة" (حسن، 2012، صفحة 188) ومن ثم ينبني المشروع السياسي الهابرماسي على أسس عقلانية ولغوية تؤسس لإتيقا الحوار والمناقشة داخل الفضاء العام، وفق مبدأ التداولية الكونية وتعتبر "شرط أو حالة توفر مشاركة حرة وقائمة على شكل نقاش لغوي وتواصلي تكون قادرة على إشباع أو إرضاء رغبات الفرد، والتي يمكن تقبلها من قبل المجتمع دونما قيود" (المحمداوي، الفلسفة السياسية: كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي للعيش معا، 2015).

فالقدرة على التواصل بين الذوات عن طريق الحوار، هو ما يؤسّس الفعل التواصلي، ويتم ذلك داخل الفضاء العمومي ومنه فهذه الأفضية هي أساس بناء نظرية حول المجتمع، ومن ثم فإن نظرية الفعل التواصلي على وفق بفكرة الديمقراطية من خلال المناقشة المحدّدة للشروط المعيارية التي ينبني من خلالها الفعل السياسي داخل الفضاء العام، ومنه تنبني أسس الديمقراطية على:

1. وجود المؤسسة القانونية الشرعية.
2. تحقيق مبدأي الحرية: الاستقلال العام والخاص.
3. النقاش والتشاور وتشكيل الرأي السياسي عبر المشاركة السياسية. (المحمداوي، الفلسفة السياسية: كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي للعيش معا، 2015).

ويعتبر التشاور مقولة مركزية في الفكر السياسي الهابرماسي تهدف إلى تحقيق مصلحة جميع أفراد المجتمع داخل الفضاء العمومي، أراد من خلالها هابرماس أن يخلق مواطنا كوسموبولوتيا يُجاوز جميع الحدود، للنظر في قضايا تخص الشأن البشري، إذ الديمقراطية عند هابرماس تهدف إلى "تأسيس جماعة تواصلية خالية من الإكراه والهيمنة والسلطة باستثناء هيمنة أفضل حجة meilleur argument" (هابرماس، ثلاثة نماذج معيارية للديمقراطية، 2009، صفحة 217)، فمبدأ التشاور الديمقراطي هو الذي يُضفي الشرعية على القانون، ومنه فالديمقراطية تتحقق باسم إرادة الشعب والتواصل يتحقق بفعل الحوار والمناقشة العقلانية بين المواطنين داخل الفضاء العمومي وهذا ما يجسّد فكرة المجتمع المدني.

5- خاتمة:

وتحصيلا لما سبق، فإن هذه المقاربة للفهم السياسي الهابرماسي لفكرة الفضاء العمومي في صلتها بالعقلانية التواصلية قد أفرزت جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- كان هدف هابرماس أن يصل القول بالفعل، من خلال نظريته السياسية التي شكّلت العقلنة شقها النظري، والفضاء العمومي شقها التطبيقي، منطلقا من فكرته المبدعة حول العقلانية التواصلية، التي تجاوزت منطق الأداتية من خلال إحياء سؤال الفيلا صوفيا في بعده النقدي التحرري، ومن أجل تفعيل البعد السياسي الديمقراطي في إطار تحقيق المواءمة والمحايثة بين مؤسسات الدولة والشعب كفاعل إيجابي داخل الفضاء العمومي، حاملا لواء المحاججة العقلانية في تحقيق إرادته الحرة لهدف تحقيق الفهم والتفاهم يصبح الفعل السياسي مجالا لتحقيق العقلانية التواصلية وإعادة بناء الواقع الاجتماعي.
- تهدف نظرية العقلنة إلى تجسيد فكرة الديقراطية في المجال السياسي، فإقامة دولة الحق والقانون أصبح رهانا ديمقراطيا تقتضيه إرادة الشعب، وأن الفضاء العام هو مفتاح لتأسيس

نظريته في الديمقراطية، والذي لا يقف في حدود الماضي والحاضر وإنما يستشرف أفقا منفتحا على المستقبل.

- يعلي هابرماس من شأن التشاور كبراديغم راهني للديمقراطية يرتبط بالنقاش العقلاني، الذي يتّخذ من منطق الحجاج سندا له داخل الفضاء العمومي، حيث تشكل اللغة منعطفا أساسيا داخل الفضاء العمومي بفضلها يحدث التفاهم بين المواطنين، وهو ما يجسّد الديمقراطية فعليا، فلقد شرعنت أخلاقيات المناقشة لأسس معيارية لقيام الديمقراطية.
- إن تجسيد الفكر السياسي الهابرماسي، في نموذجه الديمقراطية التشاورية هو إكمال لمشروع الحداثة السياسي في صورته الأمثل.
- ساهم مفهوم الفضاء العمومي في تحقيق الاندماج الاجتماعي، حيث كانت العقلانية هي نتاج الديمقراطية، وأن العقلنة تتحقق من خلال الاندماج الاجتماعي عبر وسيط اللغة، فالفضاء العمومي له دور كبير في ترسيخ قيم المواطنة والديمقراطية والحرية، وهو ما شكّل أساس الفكر السياسي الهابرماسي، لذلك اعتبر إيف سينتومير في كتابه الديمقراطية المستحيلة هابرماس "فيلسوف الفضاء العام" (سينتومير، 2023، صفحة 324)، فلقد ولّدت الفلسفة الهابرماسية قاموسا ثريا بالمفاهيم ارتبط خاصة بالفضاء العمومي، الرأي العام، التشاور، الديمقراطية التشاورية، المجتمع المدني، دولة الحق والقانون والديمقراطية، العقلانية التواصلية وغيرها من المفاهيم التي حاكت الفكر السياسي الهابرماسي.

قائمة المراجع

اولا المراجع باللغة العربية

1. أبو النور حمدي أبو النور حسن. (2012). *يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل* . بيروت، لبنان: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع .
2. أكسل هونيث، نانسي فريزر، أوسكار نيغت، ألكسندر نيومان، أوليفي فوارول، ستيفان هابر. (2022). *الفضاء العمومي في المطارحات ما بعد الهابرماسية قراءات في المفهوم والدلالات والمآلات* (الإصدار 1). (كمال بومنير، المترجمون) تونس: مؤسسةالأطرش للتوزيع GLD .
3. إيف سينتومير. (2023). *الديمقراطية المستحيلة؟ السياسة والحداثة عند فيبر وهابرماس* (الإصدار 1). (جورج كتوره، المترجمون) بيروت، لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
4. خديجة زتيلي. (2014). *الفلسفة السياسية المعاصرة* (الإصدار 1). الرباط، المغرب: دار الأمان.

5. رولف فيغرسهاوس. (2022). *مدرسة فرانكفورت تاريخها وتطورها النظري وأهميتها السياسية* (الإصدار 1). (عصام سليمان، غانم هنا، المترجمون) بيروت ، لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
6. علي عبود المحمداوي. (2011). *الإشكالية السياسية للحداثة من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل هابرماس أُنموذجاً* (الإصدار 1). الجزائر العاصمة، الجزائر: منشورات الاختلاف.
7. علي عبود المحمداوي. (2015). *الفلسفة السياسية: كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي للعيش معا* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: منشورات ضفاف.
8. عمر مهيبل. (2005). *إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة* (الإصدار 1). بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم .
9. مجموعة مؤلفين. (2012). *الفلسفة السياسية المعاصرة من الشموليات إلى السرديات الصغرى* (الإصدار 1). (علي عبود المحمداوي، المحرر) بيروت، لبنان: دار الروافد الثقافية.
10. نور الدين علوش. (2016). *فلسفة السلطة السياسية عند هيبرماس* (الإصدار 1). لبنان: الرافدين.
11. يورغن هابرماس. (2009). ثلاثة نماذج معيارية للديمقراطية. *مجلة ثقافات*، 219.
12. يورغن هابرماس. (2020). *نظرية الفعل التواصلي في نقد العقل الوظيفي* (الإصدار 1). (فتحي المسكيني، المترجمون) بيروت ، لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

ثانيا المراجع باللغة الاجنبية

13. .Droit et démocratie entre faits et normes .(1997) .Jürgen Habermas France: (المترجمون، Christian Bouchindhomme Rainer Rochlitz) .Gallimard

14. .Espace public et démocratie délibérative: un .(2023) .Jürgen Habrmas .France: Gallimard (المترجمون، Frédéric Joly)